درجةُ رجالِ الأعمال

ناصر الرباط ❖

«الحياة جملة معقّدة من العلاقات تنتهي بنهايتها»: هكذا كان رمزي يردّد كلّما مرّ بموقفٍ صعبٍ أو حادثةٍ مؤلمة. لم يعد يذْكر إنْ كان قد قرأ هذه العبارةَ في مكانٍ ما، أو سمعها من أحدٍ ما، أو ألّفها بنفسه. المهمّ أنه كان يجد فيها تفسيرًا جامعًا مانعًا لتصرّفاته، وكأنّه يقول لنفسه انْ لا علاقةَ جديرةً بأن يعلّقَ المرءُ عليها أملاً كبيرًا أو يتوقّع ديمومتَها أجلاً طويلاً. أو ربما كان يستخدم تلك العبارةَ غطاءً لتنقّله الدائم بين علاقاتٍ لا تستمرّ الواحدةُ منها أكثرَ من بضعة أشهر، ينهيها عادةً بأقلّ قدرٍ من التردّد كلّما أصبحت العاطفةُ قويةً وتوقُّعُ الارتباط واضحًا، ليبدأ بالتفتيش عن علاقةٍ بامرأةٍ أخرى. ولكنّ ذلك لا يعني أنّ رمزي إنسانٌ قاسي الفؤاد أو منطوٍ بطبيعته.

هذا ما أدركه رفاقُه في الدراسة خلال المراحل التعليميّة كلّها. فهو كان متوقّد الذهن وسريع البديهة، يجيب على كلّ أسئلة الأساتذة في الفصول، ويتنافس دائمًا على المرتبة الأولى باندفاعٍ وحميّةٍ يقاربان الصراع. ولكنه، ماعدا ذلك، كان صبيّاً خجولاً ورقيقَ الإحساس ومحبّاً لرفاقه. أمّا عندما كبر واتّسعتْ دائرةُ معارفه ونشاطاته، فقد حافظ على شعوره بالتفوّق وما يصاحبه من إحساس بالتفرّد، وكذلك على إخلاصه لأصدقائه. ولكنه انغمس في حياةٍ اجتماعيّةٍ صاخبة، وتنقّل بين علاقاتٍ متعدّدةٍ مع فتياتٍ كثيرات لم تدمْ أيٌّ منها طويلاً لكي تتطوّر إلى ارتباطٍ طويل الأمد، ربما لأنّه يخاف الارتباط أو يظنّ نفسَه أرفعَ من ذلك.

❖ ❖ ❖

لم يكن هذا الإحساسُ أوّلَ ما دار بخَلد المضيفة الجميلة التي لاحظتْ وسامتَه، مع أنه فشل في أن يردّ ابتسامتَها المشرقة واكتفى بأن أعطاها تذكرتَه من دون أن ينظرَ إلى وجهها أو يخاطبَها. ودلف إلى مقعده في درجة رجال الأعمال بسرعةٍ من اعتاد السفرَ الدائم. وضع حقيبتَه في الرفّ العلويّ، وسحب منها كتابًا ونظّارتيْه، وخلع سترتَه وأعطاها للمضيفة نفسها بطريقةٍ آليّة، وجلس في مقعده يقرأ في كتابه وبقيّةُ المسافرين تمرّ بجانبه في طريقها إلى مقاعدها في الصفوف الخلفيّة. جاءته المضيفةُ نفسُها بكأسٍ من العصير فأخذها ورفع رأسَه نحوها، ففاجأتْه نظرتُها وجمالُها الهادئ وابتسامتُها التي كانت أكثرَ من ابتسامة عمل. ردّ على ابتسامتها بابتسامةٍ رائقة، فقالت مباشرةً بصوت رقراق: «تفضّلْ.» «شكرًا،» أجابها وهو يفتّش عن كلماتٍ أخرى ليقولها. «يبدو لي أنّ الطائرة غيرُ ممتلئة،» قال في محاولة لشبكِ حديثٍ معها. «أنتَ المسافرُ الوحيد هنا في درجة رجال الأعمال، ولكنّ الصفوف الخلفية ممتلئة.» فتشجّع وقال: «هذا من حسن حظّي إذا كنتِ أنتِ المسؤولة عن درجتي.» «وأنا كذلك بالفعل،» أجابته دلال بدلال، وفي نفسها شيءٌ من الاندهاش لتغيّره الواضح.

أقلعت الطائرةُ، وقامت دلال بكلّ واجباتها كمضيفة، ثم عادت إلى زاويتها تتلهّى بترتيب العلب التي لم تُستخدمْ من قِبل المسافرين الذين لم يسافروا. وسرعان ما أطلّ وجهُ رمزي الوسيم فعلاً ليطلبَ كأسًا من الماء. أعطته إيّاها وهي تبتسم، فسألها إنْ كان بإمكانه مجاذبتُها الحديثَ قليلاً لأنّ الرحلة طويلة. أجل، أجابت وهي تضحك. فسألها لِمَ تضحك، فقالت لأنها قرّرتْ منذ زمن طويل ألاّ تثقَ بحُكْمها الأول على الناس لأنه دائمًا مخطئ. ولِمَ ذلك؟ سألها. فأجابت لأنها عندما شاهدتْه يدخل الطائرةَ من دون أن ينظر إلى شيء أو أحد قالت لنفسها: «هذا مسافر مترفّع ولامبالٍ، مع أنه وسيم.» ثم عضّت على شفتيْها لأنها ربما تسرّعتْ في الإفصاح عن رأيها وبعضٍ من مشاعرها. لكنّ بسمة رمزي المرحّبة والمشجّعة بدّدتْ تردّدَها. واستمرّ الحديثُ بينهما ولم يتوقّفْ حتى عندما أعلن قائدُ الطائرة قربَ الوصول. تبادلا أرقامَ الهواتف عندما فُتح بابُ الطائرة، وانطلق رمزي مستعجلاً لأنه كان عل موعد عملٍ مهمّ.

اتّصل رمزي بدلال من الفندق في تلك الليلة، ودعاها إلى العشاء في اليوم التالي، لعلمه بأنّ فريقَها لن يغادرَ المدينةَ قبل اليوم الذي يليه. وقبلتْ. ذهبا إلى مطعمٍ محليّ صغير كان رمزي يعرفه من زياراته السابقة، هادئ وأنيق وأطباقُه لذيذة من غير مبالغة ولا تفخيم. شربا

❖ - كاتب سوريّ. أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلاميّة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).

زجاجتيْ نبيذ وتحادثا مطوّلاً عن حياتيْهما. تبادلا قبلةً في التاكسي الذي أوصل دلال إلى فندقها وتواعدا على اللقاء في مدينتهما. وبعد ستة أشهر من المواعدة كلّما سنحتْ لهما الفرصةُ بسببٍ من جدوليْ عملهما المزدحميْن، سأل رمزي دلال أن تتزوّجه فوافقتْ. وكان حفلُ زفافهما حدثَ الموسم: فكلاهما أكثرُ من جميل، وهو رجلُ أعمالٍ ناجحٌ ومعروفٌ، وهي امرأة عاملةٌ جسورة، وأسرتاهما تتمتّعان بسمعةٍ طيّبة في المدينة. ونشرت الصحفُ صورةَ العروسين الرائعة في صدر صفحاتها الاجتماعيّة وأخبرتْ قرّاءها بأنّهما سيذهبان في جولة شهر العسل حول العالم.

❖ ❖ ❖

بدأ الزواج سعيدًا والعيشُ منسجمًا بين العروسيْن الشابيْن. خفّفتْ دلال من عملها ولكنها لم تشأْ أن تنقطعَ عنه تمامًا حتى بعد أن جاءهما ابنُهما الوحيدُ عقب سنةٍ من زواجهما. ولم يخفّفْ رمزي من عمله وسفره ـ بل لعلّ أسفاره زادت لأنّ مركزه ارتفع وزاد الطلبُ على خبرته في المباحثات الماليّة المرافقة لعقود الشركات الكبيرة في مدن الخليج الطافحة بالثروة الجديدة. ولم تزعجْ هذه الأسفارُ رمزي بقدْرِ ما أزعجتْ دلال التي لم تشكّ قطّ في إخلاصه ولكنها لم تقتنعْ بأنّ هدفَ أسفاره كلّها هو العمل وأنّ رمزي، الوسيمَ الذي علقها خلالَ رحلة على طائرة، قد كفّ عن «هذه الأفعال،» رغم تأكيده المتكرّر لها بأنه قد كفّ فعلاً.

إلاّ أنه لم يكفّ، وإنْ أصبح أكثر حذرًا في متابعة مَنْ تروق له، فيتّخذ الاحتياطاتِ كلَّها لكي لا ينفضحَ أمرُه فيفقدَ دلال التي يحبّ وعشَّه الصغيرَ الذي يعود إليه بعد كلّ ترحال وهو يَشْعر ـ بصدقٍ كما كان يظنّ ـ بأنه ملاذُه الأوحدُ وبأنّ حبّه لزوجته وابنه فوق كلّ شعور. وطبعًا أمّن له السفرُ الغطاءَ المناسب والظروفَ المساعدةَ لكي لا يتورّطَ أكثر من اللازم في أيٍّ من علاقاته العابرة ولكي يبقيها كلَّها بعيدةً عن حياته في بيته ومدينته وبلده. وصار ديدنُه الاستجابةَ لكلّ مضيفةٍ جويّةٍ تبدي له تودّدًا يفوق ما هو معهودٌ بين مضيفةٍ وزبونٍ وسيمٍ ولبقٍ يدفع ثمنَ تذكرةِ درجةِ رجال الأعمال كاملةً.

ونجح رمزي في ذلك، ولكنْ جزئيّاً: فاللعبة لم ترُقْ دومًا لكلّ مَنْ تبادله الابتسامَ في البداية بعد أن تلاحظ خاتمَ الزواج، الذي لم يخلعْه بتاتًا، دليلاً على حدود العلاقة المفترضة، إنْ حصلتْ. ومع ذلك حصلتْ علاقاتٌ عدة، وتجاوز بعضُها اللقاءَ العابرَ في المدن البعيدة والمطاعم الخافتة الإضاءة وغرف نوم فنادق النجوم الخمس. وكان رمزي فيها كلّها مضيافًا كريمًا: يبدأ العلاقةَ دومًا بدعوةٍ على عشاءٍ فاخر، وينهيها بهديّةٍ أنيقةٍ غاليةِ الثمن، عقدٍ من اللؤلؤ أو من الأحجار الكريمة من أشهر محلاّت تصميم المجوهرات، يقدّمها بنفسه، وهو يعلن آسفًا وبصدقٍ أنّ العلاقة لا يمكن أن تستمرّ لكثرة مشاغله وزيادة أسفاره التي ستأخذه بعيدًا لفتراتٍ طويلة. ولكنه كان أيضًا حذرًا باستمرار في كلّ علاقاته: لا يتطرّق إلى حياته الزوجيّة إطلاقًا، ولا يسأل صديقاته عن علاقاتهنّ العاطفيّة أبدًا، بل يكتفي بالمرح والتودّد والتصرّفات المهذّبة التي تليق بصورته كرجل أعمال ناجح. لم يَسْمحْ لأيّ حديثٍ بأن يقتحم حياتَه في المدينة التي تجمعه بدلال والولد، بل لم يصرّحْ لأيّ من صديقاته باسم المدينة التي يعيش فيها. تركهنّ كلهنّ وهنّ يظنّنّ أنه يعيش فعلاً بين أجنحة الفنادق الفاخرة ودرجة رجال الأعمال في طائرات الشركات المختلفة التي كان يستخدمها في أسفاره ويدفع ثمنَها من بطاقة ائتمان خاصةٍ بالعمل، لا علاقة لها ببطاقاته الشخصيّة أو بحساب مصرفه المشترك مع دلال. وزيادةً في الاحتياط كان رمزي يغيّر شركة الطيران التي يستخدمها في رحلات عمله ما إنْ ينهي علاقتَه بواحدة من مضيفاتها، فيلغي حسابَه معها وبطاقةَ الائتمان الخاصة بها، ويتنازل عن الأميال العديدة التي يكون قد جمعها في برنامجِ دائمي السفرِ الخاصّ بها.

❖ ❖ ❖

في يومٍ كالحٍ وباردٍ وممطر، صعد رمزي إلى الطائرة شاردَ الذهن. كانت الرحلة مضنية وعجز عن عقد الصفقة التي سافر من أجلها واضطرّ أن يتغيّب عن عيد زواجه العاشر. فشل في ملاحظة ابتسامة المضيفة ومدّ لها يدَه بالتذكرة من دون أن ينبسَ بكلمة. دخل الطائرة وارتمى على مقعده من غير أن يخلعَ سترتَه أو يُخرجَ نظّارتَه وكتابَه. ولكنه هدأ بعد قليل، وبعد كأس الشمپانيا التي قدّمتها إليه المضيفةُ الجميلةُ حقّاً، فعادت إليه روحُه وانتبه إلى ألق مضيفته وتشجيعها، وإلى أنه الراكبُ الوحيدُ في درجة رجال الأعمال. أمسك مجلّةً يتصفّحها لكي يلهي نفسَه عند الإقلاع، ثم أقفل عينيه لدقائق كما اعتاد دومًا حتى اعتدلت الطائرة في مسارها وبلغتِ الارتفاعَ الذي ستحلّق عليه من غير كثير خضّاتٍ أو مطبّات. جاءته المضيفةُ الفتيّةُ مبتسمةً تسأله عمّا يرغب فيه على العشاء، فابتسم لها وسألها عمّا تنصح به؟ فردّت بسرعةٍ مَن اعتاد مثل هذا السؤال: «ما يروق لك. السمك واللحم كلاهما شهيّ، وكلاهما محضّر من قِبل أهمّ طهاة شركتنا...» ولكنها توقّفتْ لحظةً وهي تبادله ابتسامتَه بابتسامةٍ أرقّ كأنها انتبهتْ إلى وسامته ومحاولةِ التودّد المتشاقية البادية في عينيه وقالت: «أنا شخصياً أفضّل السمك، فهو أشهى وأقلّ ضررًا من اللحم.» فجاوبها على الوتيرة نفسها: «فليكنْ، فأنا اليومَ في سنٍّ لم تعد تسمح لي بالتهاون في أكلي.» التقطت المضيفةُ الحلوةُ المبادرةَ ثانيةً وقالت: «ولكنّك لا تحتاج إلى أيّ حميّةٍ؛ فأنت تفيض شبابًا وحيويّة!» عَلِمَ كلاهما لحَظَتها أنّ الإعجاب متبادل، وبدأتْ رقصةُ التقارب. جلبتْ له طعامَه على غطاءٍ أبيض هفهاف وأعادت ملء كأسه من النبيذ الأبيض الإيطاليّ الفاخر الذي نصحتْه به. وكانت ابتسامتُها تزداد اتساعًا كلّما عادت إلى مقعده مع «نهفة» جديدة: صحن من الفواكه الاستوائيّة مرتّبةً بتناسقٍ فنّيّ آخّاذ، فنجان من الإكسپرسو القويّ مع قطعة بسكويت صغيرة، وأخيرًا قطعة من الشوكولا البلجيكيّ الأسود الذي عبّر رمزي عن محبّته له.

فرغت المضيفةُ الحلوةُ من عملها وخفّف الطيّارُ من الإضاءة في مختلف المقصورات للسماح لمن يرغب من الركّاب في النوم خلال الساعات المتبقّية على الرحلة. وأطلّت المضيفةُ من مقصورتها وفي عينيها سؤالٌ ورغبةٌ في أن يدعوها رمزي إلى الجلوس معه والتسامر. وهذا ما فعله بلهفة قائلاً: «هلاّ جالستِني في الوقت الضائع؟ فلديّ رغبةٌ حقيقيّةٌ في أن أتعرّف إليك أكثر.» شكرتْه عيناها ولسانُها على ذلك الإطراء، وجلستْ على المقعد المقابل. تكلّما على كلّ شيء إلاّ حياتهما الخاصة؛ فكلاهما أدركَ أنّ للآخر حياةً أخرى خارج الطائرة، ولكنه اهتمّ بالمغامرة العابرة التي ربما أدّت إلى ما هو أكثرُ من حديثٍ ودودٍ ومسلّ على طائرةٍ مازال أمامَها سبعُ ساعات طويلة قبل أن تبلغ مقصدها. وتطوّر الحديثُ إلى كلامٍ واضحٍ عن الإعجاب المتبادل، وتقاربت اليدان، ثم الوجهان، وانغمس رمزي ومضيفتُه في قبلةٍ طويلةٍ وعميقة.

فجأةً ارتجّت الطائرةُ رجّة قاسية، وتطايرت الكؤوسُ التي تجمّعتْ أمام مقعد رمزي، ووقعت المضيفةُ الجميلةُ (التي كانت مائلةً بجسمها كلّه فوق رمزي) على الأرض من قوة الرجّة. ثم انتفضتْ قائمةً بسرعة بعد أن زعقتْ أجهزةُ الانذار، وأضيئتْ علاماتُ أحزمة الأمان. وجاء صوتُ الطيّار عبر المذياع يطلب إلى جميع المسافرين والمضيفين العودةَ إلى مقاعدهم بسرعة وربْطَ الأحزمة. عادت المضيفة إلى الجلوس مباشرةً أمام رمزي لأنّ رجّات الطائرة المتزايدة لم تسمحْ لها بالعودة إلى مقعدها أمام باب الدخول. وسرعان ما هبطتْ أقنعةُ الأكسجين من الأعلى، وجاء صوتُ الطيّار ثانيةً ـ مضطربًا هذه المرة ـ يطلب إلى الجميع وضعَ أقنعة الأكسجين. واستمرّت الطائرة بالارتجاج العنيف وصارت تُصْدر قرقعةً غريبة كما لو أنّ معدنَها نفسَه يتلوّى ويتخلّع. وأحسّ رمزي بضغطٍ شديدٍ على صدغيْه ناتجٍ على الأغلب عن هبوط الطائرة بسرعة هائلة. وشعر في تلك اللحظة بيد المضيفة الشابّة تمسك بيده، فالتفت إليها ليشاهدَ مظاهرَ الذعر الشديد على وجهها. حاول الابتسامَ لها، وحاولت الابتسامَ له. وضغط على يدها، وردّت له الضغطة. وحانت منه التفاتةٌ إلى النافذة، فلاحظ أنّ الطائرة مائلة بشكل رهيب إلى الأمام، وأنها على ما يبدو متوجّهة للارتطام رأسيّاً بالأرض بسرعة هائلة. صرخ، وسمع صرخة المضيفة التي اختلطتْ بالصرخات المذعورة التي كانت تأتي حادّةً ومرعبةً عبر الستارة التي تَفْصل درجتَه عن الدرجة الاقتصاديّة. والتفت ثانيةً إلى المضيفة التي فَقَدَ وجهُها لونَه وفتحتْ فمَها على أقصاه تطلق الصرخاتِ الزاعقةَ باستمرار. ثم غاب عن الوعي.

❖ ❖ ❖

لم تتزوّجْ دلال بعد وفاة رمزي المفجعة، بل لم تدخلْ في أيّ علاقة عاطفيّة. أبقت قلبَها مغلقًا عن أقرب المقرّبين إليها. شيءٌ ما داخلَها، لعلّه الإخلاص، جعلها تقرّر أن تخصّص حياتَها للاعتناء بابنها والمحافظة على ذكرى حبيبها الفقيد. طبعًا اضطرّت إلى العودة إلى العمل مضيفةً جويّةً لإعالة أسرتها الصغيرة والمحافظة على مستوى الحياة المرفّهة التي اعتادتها هي وابنها. ولكنها سعت إلى أن تكون خدمتُها فقط على الرحلات القصيرة لكي تعودَ دومًا إلى ملاذها مع ابنها.

وكبر الابنُ وصار صورةً طبقَ الأصل عن أبيه: الوسامة نفسُها، والقامة الرياضيّة عينُها، والنظرة الدافئة ذاتُها. وابتدأتْ شخصيّته بالظهور أيضًا: تهذيبُ أبيه نفسه، ورقةُ شعوره ولباقته. ودخل في العمر الذي يهتمّ فيه الفتيانُ عادةً بالفتيات، والفتياتُ بالفتيان، وأصبح له الكثيرُ من المعجبات، وكان يعاملهنّ كلّهنّ بالتهذيب نفسه... ولكنْ بلامبالاةٍ أثارت استغرابَ دلال. فهو يواعد أكثرَ من واحدة منهنّ في الأسبوع نفسه: يقضي معهنّ كلّهن أوقاتًا حلوةً من دون أن يشعر بأيّ تناقض في تعدّد علاقاته وارتباطه، رمزيّاً على الأقل، بأكثر من فتاة في الآن نفسه. وكانت دلال تشعر بغصّة في قلبها كلّما تمعّنت النظرَ في ابنها ولاحظتْ شدّةَ شبهه بأبيه الذي مازالت تفتقده بعد هذه السنين الطويلة، وبغصّةٍ أكبر كلّما فكّرتْ في أنّ الشبه بين رجُلَيْ حياتها ربما تجاوَزَ الوسامةَ واللباقةَ والتصرفَ المهذّب.

القاهرة ـ كامبريدج، ٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩

يحاول الراوي كتابة سيناريو سينمائيّ انطلاقًا من منامه عن امرأة تركب قطاراً في الصحراء، وإذ به يلتقي الفنّانة سارة، راقصةَ المسرح التي تشبه امرأةَ المنام.

رواية تتشابكُ فيها ثلاث إناث، زهور وسارة وناريمان، على خلفيّة واقع اجتماعيّ رثّ يتمثّل في سكان العشوائيّات، أيْ في حيّ موصوفٍ بالفقر والقذارة، في بلدٍ يغرق في الفوضى والغربان والنعيق.

خليل صويلح روائيٌّ سوريٌّ له ثلاث روايات: ورّاق الحبّ، وبريد عاجل، ودع عنك لومي (الصادرة عن دار الآداب). يعمل في الصحافة الثقافيّة السوريّة والعربيّة.